

لُغَةُ الْعَرَبِ

مَجَلَّةٌ شَهْرِيَّةٌ لِادْبِيَّةِ عِلْمِيَّةٍ وَتَارِيخِيَّةٍ

﴿ الجزء ٦ من السنة ٦ عن حزيران سنة ١٩٢٨ ﴾

الأخطل

Al-Akhṭal.

بِجِلْمِ الْأَسَاطِذِ الشَّابِ مَدْرَسِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ فِي الْمَدْرَسَةِ الْعِلْمِيَّةِ الثَّانِيَةِ بِالْأَسْكَندَرِيَّةِ

— ١ —

لعل الأخطل أكثر الشعراء الإسلاميين اتصالاً بالعصر الجاهلي في أغلب نواحيه ، إن لم يكن في كل نواحيه ، ولعل القدامى لم يخطئوا حين قالوا : لو أدرك الأخطل الجاهلية لما فضل أحد في الشعر . وما عساك تبغي من شاعر انتهت إليه البلاغة الجاهلية في فقهه وموضوعه ونزعتيه . ثم أضاف إليها عصارة الحياة الإسلامية في أولها ، أي حين كانت الحكومة العربية والدولة الإسلامية خالصة العروبة والدين ، لم تشبه حضارة فارس واليونان ، ولم تتورط فيما تورطت فيه من السياسة الفارسية والنزعة الفريية أيام بني العباس ، فإن نحن مرضنا اليوم لدرس هذا الشاعر لقد فأنما ندرس النفس العربية في بداوتها من جهة ، وفي فنونها الأدبية من جهة ثانية ، وفي أسلوبها الحكومي أو السياسي من جهة ثالثة ، ثم في صلابتها الخلقية والدينية آخر الأمر . ولقد يخطئ المؤرخون الذين يعتبرون رجال التاريخ وحدات مستقلة عن الدنيا كأنهم هبطوا من السماء .

او كأنهم مضارب صحرائية لا يتصلون بالحياة التي عاشوا في جوانبها وتأثروا
بمظاهرها فكانوا هم مظهرها ، كما قد يخطئون حينما يصلون الرجل بسني حياته
فقط او بعصره الذي عاش فيه . وفي الحق أن رجال التاريخ الأدبي او الفلسفي
او العلمي ترجع حياتهم في بدايتها الى ما قبل عصورهم بل الى اقدم عصور
التاريخ البشري ما دمتا نؤمن بنظرية الارث العقلي وتواصل الجهود العالمية ،
فيكون الفرد العلمي منا صلة بين الماضي والمستقبل ، لانه ثمرة السابقين ومقدمة
اللاحقين . وهكذا نجد الاخلطل في شجرة ومنهجه الفني .

— ٢ —

ففي خلافة عثمان بن عفان ، وفي جهات الجزيرة الفراتية بين تغلب نشأ
الاخلطل نصرانيا كاعلم قومها يحترم دينه لحد ما ، غير متأثر بتلك الديانة
الاسلامية التي تزخر حولها وتقوم عليها الدولة الجديدة والحكومة الفتية ،
وهذا يدل على احترام الاخلطل النصرانية دينه ودين آله ، ثم يدل كذلك على
تسامح الحكومة الاسلامية والشعب المسلم ، فلقد كان النصارى يعيشون آمنين
ناعمين ليس للتعرة الدينية ذلك الشأن الذي يعول بين القلوب ويفرق النفوس ،
بل تزيد على ذلك ان الاخلطل كان محترما مقدما لدى حكومة امية ، وان كان
سبب ذلك مذهبهم الاموي في الشعر ونصرتهم وولائهم امام اعدائهم من الشيعة
والخوارج . ولأجل ان نفهم مذهب الاخلطل في الشعر وفي السياسة العصبية
يجب ان نرجع الى الزمن الجاهلي لنعلم ان اشهر القبائل العدنانية ثنتان : مضر
وربيعة ، ومن ربيعة بكر ثم تغلب قبيلة الاخلطل ، وبين مضر وربيعة منافسة
شديدة منذ القدم ظهرت آثارها في المهاجاة بين جرير والاخلطل ، كذلك كانت
منافسة بين بكر وتغلب وحروب في الجاهلية امتدت عصبيتها الى ما بعد الاسلام
ومن غريب الامر ان يحتفظ الاخلطل بعصبية الربيعة وان ينسى الفرزدق مضرية
وينضم الى الاخلطل ليقف في وجه جرير المضرية ، كما قد يكون من الغريب ان
ينسى الاخلطل نفسه وقبيلة امم القرشيين الامويين فيضرب بهم سائر عدنان ثم
الانصار من اليمن ، ولكن الفرق السياسي في ذلك العصر هو الذي حكم على هؤلاء
الشعراء بالتناوب كما يحكم على الصنف العصرية لأن فتهاش وتساب !!!

وكيف افاد الاخطل شعراء ؟ وهذا ايضا منمود الى العهد الجاهلي فنرى مسألة أخرى غريبة : نرى ان مدرسة مصرية - أستاذها أوس بن حجر ، ومن تلاميذها زهير والنابغة ثم كعب بن زهير والحطيئة - تعتمد في فنها الشعري على امور ظهرت واضحت في آثار تلاميذها حتى لتشعر انهم جميعا صورة واحدة يأخذ بعضهم من بعض . من هذه الامور الثاني في عمل الشعر وتهذيبه قبل إضاخته ليكون محكم النسيج ، قوي الأسر ، لا اضطراب فيه . وانت تعرف حوليات زهير وقصائدا للنابغة والحطيئة ، وتشعر بما فيها من استواء واحكام . وكذلك كان الاخطل يهذب شعراء فامتاز بجزالته ، وقوة استوائه ، وأسره ، وكان ينقي من القصيدة ثلثها ويغني سائرها . ويمكنك أن تقرأ قصيدة :

خف القطين فراحوا منك أو بكروا وأدركتهم نوى في صرفها غير
التي يمدح بها عبيد الملك بن مروان لتعرف أثر التهذيب وابداع الصنعة الفنية ، ومن تلك الامور العناية بأنواع التشبيه والمجاز والكناية . ويعتبر عهد هذا المدرسة اقدم العصور الصحيحة لهذه الفنون اليبانية التي ظهرت آثارها بعد في شعراء العصر العباسي بعدما نقلها اليهم الاخطل ، والحطيئة ، ومروان بن ابي حفصة وغيرهم . ولا يزال رجال البلاغة الى اليوم يستشهدون ببنت زهير :

صحا القلب عن سلمي واقصر باطله وعري افراس الصبا ورواحله
ولا تكاد تخلو قصيدة الاخطل من هذه الانواع اليبانية .

ومنها الاعتماد على المحسنات فيما ينهجون اليه من تشبيه ومجاز فكانهم يريدون نقل الطبيعة الى اساليب القول كما ينقلها الراسم في لوحته . كذلك يشعرون الامور الواقعة والحوادث فيصورونها كما هي مرتبة حقة لا مبالغة فيها ولا زيادة . ويمكنك ان توازن بين زهير والاخطل في صدر المعلقة ، وفي قصيدة الاخطل التي سبق مطالعها .

وهذه الميزات تلفتنا الى امرين هامين : احدهما - انها تمثل الشعر العربي في اول اطوار نضجه حيث يعتمد على الطبيعة والحس دون الخيال البعيد الذي لا يظهر إلا في الاطوار الاخيرة بعد النضج العلمي والفكري بانتشار العلوم

والثقافة ، وثانيهما أنها ساعدت في إثبات كثير من الشعر الجاهلي حين عرض له الشك والانتحال امام مذاهب النقد الحديثة .

فلستكشاف هذه المدرسة المضربة كان ذا اثر ثمين في تحقيق شعر تلاميذها ، وفي اقامة الفنون البيانية في فجر التاريخ الادبي .

نقول ان الاختل درس في هذه المدرسة المضربة واخذ عن تلاميذها ، فكان شعرا صورة صادقة من شعرهم ، ولو لا شيء من موضوعاته الاجتماعية والسياسية والتاريخية لاضيف شعرا الى الجاهلية دون خوف من اصول الفن ! ولم يقتصر الاختل على احتذاء هؤلاء في طريقة التشبيه ، واخذ المعاني وترتيبها وتهذيب الشعر واحكامها ، بل تعدى ذلك الى معارضة قصيدهم واخذ عباراتهم برمتها ونصها .

عرض النابغة في دليته ، وعارض كعبا في لاميته ، وعارض زهيراً في اكثر شعرا . واخذ منه الشطرا والعبارة واخذ لا حتى في اجزاء القصيدة الواحدة . ترى ذلك اذا قرأت شعرهم جميعا ، ولو لا خوف الاطالة لوضمت يدك على امثلة كثيرة .

ووجه الغرابية في ذلك ان الاختل ربي فكيف ياخذ شعرا عن مضر ؟ قد يكون سبب ذلك ان ليس لربيعة شعر جاهلي صحيح ياخذ عنه الاختل ، وقد يكون السبب ان الشعر المعروف لربيعة مهمل التسج ضعيف الاسر لم يرق للاختل فيحتذيه ، فاقتصر الشعر المضري نموذجا فأفاد منه شعرا . وانما للموضوع اذكر الاعشى وهو ربي يقرب مذهبه من مذهب المضربين ، ولعل الاختل اخذ عنه شيئا واحدا موضوعيا وهو القول في الحمر . واما من عدا الاعشى من شعراء ربيعة فشعرهم مضطرب التسج .

— ٤ —

بعد ان نبع الاختل وجد في قومه شاعرا هجاء ايضا هو كعب بن جميل التغلبي . اشبك معه الاختل في الهجاء فاخاه الاختل ، واحتاج يزيد بن معاوية الى شاعر يرد على الانصار عدوانهم فنهب الى كعب فأبى وخاف معاوية ولكن له على الاختل ، يريد ايقاعه في الشر ، فكان الخير في ذلك للاختل

إذ اتصل بعد بخلقهم أمية، وكان فيما بعد شاعرهم المقدم .

واشرح ذلك أيضا يجب أن نعود إلى العصر الجاهلي وصدر الإسلام . فقد كان بين اليمن والعنانيين عداوة سيامية جاهلية ازدادت منذ أمد الأولون من الحكم الإسلامي بعد وفاة الرسول وحصر الحكومة في قريش . ثم انتقلت العداوة بين البيوتات العنانية أو المضربة ، فكانت منافسة بين القبائل المضربة ، وكانت بين بيت هاشم وأمية ، ظهرت واضحة حين وقف علي ومعاوية كل لصاحبه وتنتج عن ذلك انتقال الحكم إلى بني أمية على يد معاوية بن أبي سفيان .

وجد الأمويون أنفسهم أمام أعداء عديدين : اليمينيون ومنهم الانتصار سكان المدينة حين ظهر للإسلام والقبائل العنانية الأخرى ، ثم الهاشميون من قريش وكذلك الخوارج الذين اعتبرهم كثيرا ، قام يكن من معاوية ألا أنه تألف القبائل العربية ، وهذا المصيبة منه حكمه ، فما هو إلا أن مات حتى ظهرت المصيبة شديدة ، وكانت لها نتائج سياسية وأدبية معروفة .

ولم تكن صلة الأخطل يزيد بن معاوية إلا ظاهرة من هذه الحال السياسية التي قسمت العرب وأعادتهم إليهم حمية الجاهلية الأولى . فوفاقت الأحزاب تتعارب وتتنافس حتى قضت على الحكومة الأموية أولا وعلى الدولة الإسلامية آخرها . وكان لابد للمصيبة الأموية من شاعر ينصرها ، وصحيفة تدفع عنها ، والصحف الكبرى في ذلك العهد ثلاث : جرير والفرزدق والأخطل . فأما جرير فنأشئ لم يظهر بعد على أنه متأثم متخرج ، فكيف يقف مع أمية في وجه بيت هاشم بيت الرسول ؟ فاعتدله ولم يقدم الهاشميين ، كما أنه مدح الحكومة طلبا للعمال والاحتماء بها . وأما الفرزدق فكان شيعيا وإن مدح الحكومة أحيانا أو حملته الحكومة على مدحها ونفخته بالمال أنقاء لسانه وشره ، فلم يبق أمام البيت الحاكم سوى الأخطل الذي لا يمتنى بالسالة الدينية الإسلامية . كما لا تهمة الحكومة ونوعها . فوجد فيه الأمويون طلبتهم ، وأضاقوا إليهم وسموا شاعرهم واحتملوا أن يشرب ويدخل ثملا بل أن يشرب في منازلهم وأن يدل عليهم ، كل ذلك لأنهم صحيفتهم ومادحهم الخاص . فاضربوا به جريرا والفرزدق ، واغفوه بالمال الجزيل . وأما حكايتهم مع يزيد بن معاوية فتلك أن عبد الرحمن بن حسان

أبن ثابت الأنصاري شبيب برملة بنت معاوية وأخت يزيد ، فوسع ذلك حلم معاوية ، ولكن يزيد حمل الأخطل على هجاء عبد الرحمن هذا والأنصار فقال من ذلك :

ذهبت قريش بالسماحة والندی واللؤم تحت عمامم الأنصار

فذهب زعيم الأنصار إذ ذاك وهو النعمان بن بشير الى معاوية وحسره عن رأسه وقال له : أتري لؤما ؟ فقال : لا بل أرى كرما وخيرا . ما ذاك ؟ قال : زعم الأخطل ان اللؤم تحت عمامنا ... وكاد الأخطل يقع في شر لو لا ان يزيد انقذه ، فمدحه ومدح خلفاءه حتى مات في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة خمس وتسعين هجرية فانظر تلك العصيات وآثارها ، وانظر دالة الأنصار على الحكومة ، وانظر الفرق بين دهاء معاوية وقسوة يزيد الذي ضرب الأنصار في المدينة بعد موت امية في واقعة «الحرّة» المشهورة انتقاما منهم منذ ضربوا قريشا في واقعة بدر أيام الرسول حتى قال أحد شعراء امية في نكبة المدينة :

ليت اشباخي يبدر شهدوا جزع الخروج من وقع الأصل

— ٥ —

عاصر الأخطل جريرا والفرزدق ، وهاجى جريرا وغيره ، وفخر عليهم ومدح الحكومة الأموية حين غضب عليها الشيعة والخوارج وغيرهم . وكان هؤلاء الثلاثة هم الصحف السياسية للعصر الأموي واقرى الشعراء فنا واعلام مكانة ولعل الأخطل يمتاز بأنه اصدق تمثيلا للسياسة الأموية ودعوتها في استحقاق الخلافة والملك . ولكن مسألة الهجاء كانت مشغلتهم جميعا ، لان الخلفاء كانوا يزيدونها لها ليشغلوا الشعراء والقبائل بانفسهم حتى لا يفرغوا للحكومة ويناقشوها الحساب على قاعدة « فرق تسد » فانضم الفرزدق الى الأخطل وتهاقت عليهم عشرات الشعراء يهجون جريرا ، فأخاهم جميعا ؛ ولم يثبت له إلا صاحباه هذان على ان الفرزدق كان اقصرهم لحسبه ونسبه وكان جريرا اميرهم شعرا واسلمهم اساويا واكثرهم فتونا حين كان الأخطل اوصفهم للخمر واحسنهم مديحا واطهرهم هجاء .

وهنا يمكننا ان نوجز القول ونختصر فنون الأخطل الرئيسية في المدح

٢٢٢



والهجاء والقنر ووصف الخمر . هذه هي الأبواب التي تضم شعر الأخطل . وقد يدخل فيها شيء من التسيب والوصف والحكمة على الطريقة الجاهلية ، ونحن نميل الى أن شيئا من شعره قد ضاع ، وإن ديوانه المطبوع لا يجمع كل آثاره ، ولكنهم كان أحسن حظا من صاحبيه اللذين لم ينالا هذه الناية بحفظ شعرهما واتقان طبعهما ونشره للناس .

ولمنا نكون قد المعنا المامة كلفة بهذا الشاعر الممتاز . بقيت مسألة الموازنة المفصلة بينه وبين صاحبيه ، ولما كانت هذه في حاجة الى تفصيل شديد ودراسة مطولة لا تسمحها الآن صفحات (لغة العرب) الغراء ، فأرى إرجاءها الى غير هذا العدد .

(لغة العرب) لم نقرأ في حياتنا كلها مقالا يحلل « نفسية » الأخطل وشعره وعصره وآراءه . مثل المقال الذي حبك عزالا الأستاذ الكبير الشايب . طالعنا كتبنا جملة للناطقين بالضاد ولعلماء الشرقيات فلم نجد فيهم من اجاد في كلامه واصاب في تفاصيل ما حلله اصابته صديقنا الجليل استاذ الادب العربي في المدرسة العباسية الثانوية في الاسكندرية . فلا جرم ان الأخطل تجذل عظمته في مرفده عند علمه ان مثل هذا الكاتب الفذ عرفه لانياء هذا العصر بهذا الكلام الوجيز المعجز واغنى الناس عن مطالعة المجلدات الضخمة التي كتبت او تكتب عنه وهي لا تفيد عشر معشار ما جاء في هذه القلادة التي طوقنا بها جيد هذا الجزء . فنطلب الى حضرة الأستاذ الكبير ان يشتم بحثه هذا وواقينا بما بقي منه ليكون احسن ذخرا للقراء وللأجيال المقبلة .

﴿ البرجاس ﴾

« البرجاس : غرض في الهواء يرمى به . قال الجوهرى : واظنني مولدا . » (لسان العرب) وفي البرهان القاطع : هو بالفارسية « داركدو » وبالتركية : « قباق اغاجسى » وهو رمح او سارية في اعلاها غرض . واكثر ما يكون كرة من ذهب او فضة . تتخذ غرضا فيرميها الخناق ، واذا اصابها احداهم بسهمه - بشرط ان يكون على جواد ناهيا الارض - يكافأ وتكون الهدية جام ذهب او فضة وحصانا وخلعة . » ا . هـ . وهو من اليونانية Purgos .